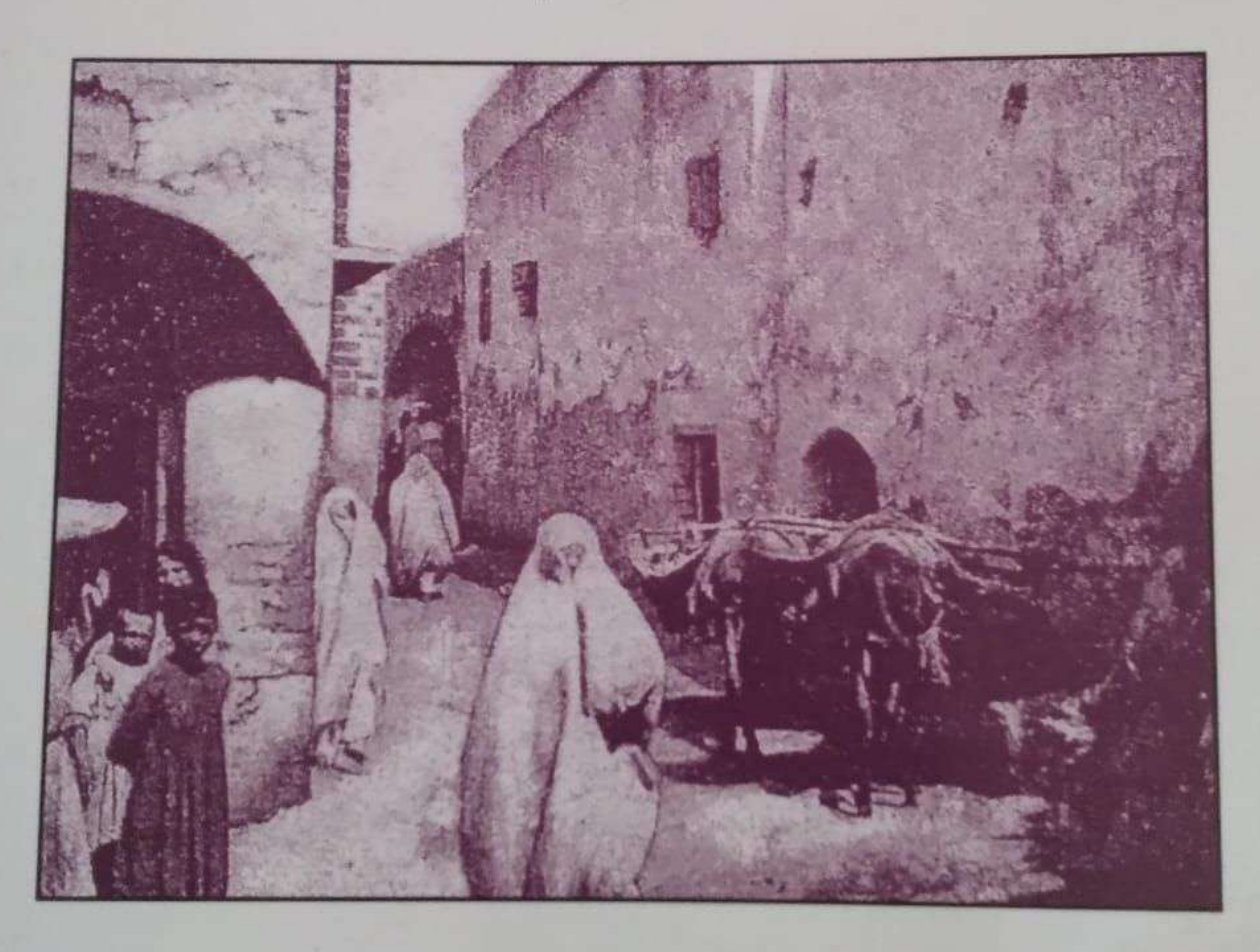
إميل كيرن

رحلة مراقب صحي إلى المغرب
1911 م



ترجمة وتقديم بوشعيب الساوري



2011

رحلة مراقب صحي إلى المغرب
1911 م

إميل كيرن

رحلة مراقب صحي إلى المغرب
1911 م

ترجمة وتقديم بوشعيب الساوري

الكتاب: رحلة مراقب صحي إلى المغرب 1911 م
المؤلف: إميل كيرن
المترجم: بوشعيب الساوري
البريد الإلكتروني: bouchsaouri@yahoo.fr
الناشر: القلم العربي
الطبعة: الأولى 2011
المطبعة: دار القرويين
رقم الايداع: 2011 MO 1859
ردمك: 2 - 4543 - 1 - 9954 - 987

المحتوى

مقدمة المترجم

تُقدّم لنا رحلة إميل كيرن (رحلة مراقب صحي إلى المغرب)[1] صورة عن الأوضاع الصحية والاجتماعية للمغرب قُبيل الحماية الفرنسية (1912 - 1956)، كما تبرز لنا، أيضاً، أشكال التغلغل الفرنسي المنظم في كثير من المناطق بالمغرب، وعلى جميع الأصعدة: الاجتماعية والعسكرية والاقتصادية.

وتكمن أهميتها في كونها أول نص رحلي، حسب ما نعتقد، يجعل اهتمامه المركزي هو المسألة الصحية بالمغرب، وكونها أعملت من قِبَل رجل مختص (مراقب صحي)؛ مما يخولها لأن تكون وثيقة هامة حول الوضعية الصحية والاجتماعية لمغرب بداية القرن العشرين.

---

1. Emile KERN, **Voyage d'un Hygiéniste au Maroc**, Paris: Masson, 1911.

صاحب الرحلة

كان العلماء هم الذين يمهدون الطريق للجند، في عملية التوسع الاستعماري الأوربي، وقد تعزز هذا الدور مع نشأة العلوم الإنسانية الحديثة التأسيس؛ وذلك عملاً بمبدأ "السيف والقلم" كما أسسته فلسفة الأنوار[2]. وكان مقر ما سمي بالبعثة العلمية بالمغرب (La Mission Scientifique du Maroc) بطنجة، وقد أسست سنة 1904 حيث كان ينزل العلماء والمستكشفون الفرنسيون ممن نشرت كثير من أعمالهم بالوثائق المغربية (Les Archives).

لا نعرف الشيء الكثير عن صاحب الرحلة، فالمعلومات عنه شبه منعدمة، سوى ما جاء من صفات مهنية وعلمية على الصفحة الأولى من غلاف الرحلة؛ ويتعلق الأمر بثلاث صفات وهي:

• الأولى: مراقب صحي من خلال عنوان الرحلة (voyage d'un hygiéniste au Maroc)، الذي يؤكد أن القائم بالرحلة ذهب في مهمة رسمية وهي التفتيش الصحي،

• الثانية: تخص مكانته العلمية وهي أنه مهندس مدني (Ingénieur Civil)،

• الثالثة: وتتعلق بوضعه الاعتباري، بكونه نائب رئيس جمعية الطب العمومي والهندسة الصحية (Vice-président de la société de médecine publique et de génie sanitaire) وهي الجمعية الفرنسية التي قدم لها تقريراً عن رحلته التي نحن بصددها.

---

2. راجع في هذا الصدد:
Thierry HENTSCH, **L'Orient imaginaire : la vision politique occidentale de l'Est méditerranéen**, Paris, Les Editions de Minuit, 1988.

رحل إميل كيرن، حسب ما يُستشف من الرحلة واهتماماتها، إلى المغرب ضمن وفد فرنسي لحفظ الصحة، مواكب لتدخل فرنسا بالمغرب، بهدف تشخيص الجوانب الصحية، وإصلاح ما يمكن إصلاحه، وإضافة ما يمكن إضافته من لجان ومؤسسات، في إطار سياسة تهيئة الأجواء للفرنسيين، سواء منهم المستقرين أو المحتملين التوافد على المغرب.

الظروف التاريخية للرحلة

من خلال غلاف الكتاب، يتبيّن لنا أن هذه الرحلة تمت قُبيل فرض الحماية الفرنسية على المغرب، ولا نعرف تاريخها بالتدقيق، ولا نتوفر سوى على تاريخ نشرها بالعدد 11 من مجلة حفظ الصحة والشرطة الصحية (La Revue d'Hygiène et de Police Sanitaire) سنة 1911. وهو أيضا تاريخ صدورها في كتيب عن منشورات ماسون (Masson) سنة 1911.

تمت رحلة إميل كيرن (رحلة مراقب صحي إلى المغرب) في سياق الخدمات الصحية التي مهدت للاستعمار الفرنسي، ما بين سنتي 1860 و1912، بهدف كسب ثقة المغاربة، وتحقيق التغلغل السلمي[3] بأقل التكاليف وتجنباً لتكرار تجربة الجزائر وما تكبدته فيها فرنسا من خسائر في الأموال والأرواح والوقت، وفي ارتباط بعزم فرنسا على احتلال المغرب والتمهيد لذلك بدراسة مختلف أوضاعه، بإنجاز عدد كبير من الأبحاث حول الأمراض والأوبئة المنتشرة في المغرب وعن الحالة الصحية عموماً، تحسّباً لما يمكن أن يواجهه الفرنسيون، خلال عملية الغزو ثم الاستقرار[4].

---

3. أحمد مكاوي، الدور الاختراقي والاستعماري للطبابة الأوربية في المغرب، سلسة قضايا تاريخية رقم 10، منشورات الزمن، الرباط، 2009، ص. 6.

4. نفسه، ص. 94-95.

مسار الرحلة

اقتصر إميل كيرن (Emile Kern) على ذكر انتقاله من فرنسا، وتحديداً من مدينة مارسيليا إلى طنجة عبر سفينة أجنبية، دون تحديد تاريخ خروجه ولا تاريخ وصوله، ولا المدة التي استغرقتها رحلته بالمغرب. مكتفياً فقط بذِكر مدة الرحلة البحرية من مرسيليا إلى طنجة التي استغرقت ثماناً وأربعين ساعة. يقول: "بعد رحلة بحرية استغرقت ثمانا وأربعين ساعة، وصلنا إلى طنجة."(ص. 20) وبعدها يتوقف عن ذكر مسار تنقلاته. أما مسار العودة فهو غائب كلياً.

وعلى الرغم من ذلك يبدو لنا أن الرحالة انتقل عبر عدة مدن ساحلية بالمغرب، وهي على الأقل: طنجة، الدار البيضاء، مزاغان (الجديدة حالياً) وآسفي. وهي المدن التي ذكرها في تقريره عن الأوضاع الصحية للمغرب.

هيمنة التقرير

أول ما يثير قارئ هذه الرحلة هو غياب التذويت والبعد السير ذاتي، اللهم في بدايتها. وقد نبّه صاحبها، إميل كيرن، إلى ذلك، على مستوى المنهج الذي سيسلكه في عرض وقائع أحداث رحلته. وذلك بالاقتصار على الموضوع والاهتمام به على حساب الذات التي يغيبها بشكل كبير مقابل حضور التقرير، تمشياً مع مهمة الرحالة وسياق وملابسات رحلته.

لا نجد حضوراً للذات إلا من الناحية الجمعية في علاقة الأنا بالآخر، أثناء التشديد على أهمية التدخل الفرنسي بالمغرب. أو في بعض المواقف المؤثرة أثناء تفاعل الرحالة مع مشاهداته؛ مثل تأثره بالحالة الصحية لبعض الجنود الفرنسيين المصابين وامتناعه عن أخذ صور لهم. يقول: "هذا

الموكب الكبير للشبان، صرعى الأمراض، المصابين بها في الأماكن التي كانت تحت حمايتهم، تجعل من الصعب عيادتهم، وهو إحساس، تتفهمونه، منعني من أخذ صور لهم." (ص. 52).

وذلك انسجاماً مع سياق كتابة وإلقاء هذا النص؛ فهو عبارة عن تقرير، موجه إلى جمعية علمية متخصصة (جمعية الطب العمومي والهندسة الصحية)، بعيد كثيراً عن الروح الأدبية، حيث فرض عليه ذلك إبعاد الجوانب الذاتية والاستطرادات، فتوجه إلى تشخيص ووصف الوضع الصحي والاجتماعي لمغرب بداية القرن العشرين، من خلال تيمات لا تخرج عن اهتمامات الرحالة، باعتباره مراقباً صحياً ملزماً بمهمة رسمية، يؤكد أيضاً تغليب الحس العلمي على الحس الأدبي.

وقد كثرت في تلك الحقبة الرحلات التي كُتبت على شكل تقرير أعيدت كتابته للجمهور[5]، كما دشن هذه الممارسة الكتابية شارل دي فوكو الذي نشر ثلاثة كتب عن رحلته، كل نص في شكل مغاير عن الآخر[6].

منهج الكتابة

يشير الرحالة، بشكل صريح، إلى منهجه في كتابة نصه وعرضه، وقد تمثل ذلك في الاقتصار على تقديم الخطوط العريضة لما أثاره خلال

5. Boussif OUASTI, **Profils du Maroc : voyage, images et paysages**, Tanger : Altopress, 2001.

6. راجع رسالة بوعصاب وفاء، تحت إشراف الأستاذ الدكتور بوسيف واسطي بكلية الآداب بتطوان:
La Trilogie de Charles de Foucauld au Maroc, Thèse de doctorat soutenue devant l'université de Tétouan, 1999.

تنقلاته بالمغرب. يقول في بداية رحلته: "سأكتفي بتقديم الخطوط العريضة للوقائع التي أثارتني خلال رحلتي إليه."(ص. 22) فجاءت على شكل تقرير مركز حول الظروف الصحية والحالة الاجتماعية لبعض المدن المغربية ، بدل تتبع انتقالاته عبر الأماكن والمدن التي زارها، كما تعودنا في الكتابات الرحلية. يقول: "بدل استعراض متتابع لكل المدن والأماكن التي أتيحت لي زيارتها بالمغرب، سأتحدث عن الحالة الاجتماعية للشعب المغربي، والظروف الصحية التي عاينتها هناك."(ص. 22).

يروم الرحالة كتابة جديدة للرحلة بحيث يقتصر الوصف على الجانب الصحي للمغاربة دون الخوض في سرد تفاصيل الرحلة الفعلية والتي تبقى كإطار يستمد النص منه المصداقية ومفعول الحقيقة.

وذلك عبر تشخيص الأوضاع الصحية والاجتماعية السيئة وإبراز الأسباب والعوامل التي أدّت إليها، من خلال سعيه إلى تقديم تفسير لكل ظاهرة يسجلها. يقول، مثلاً، في حديثه عن المحرومين الذين ينامون في العراء، بعد أن استفسر عنهم: "أجابوني بأن الكثير منهم، كانوا في فترة ما يتولون مناصب عُليا، ويمتلكون ثروة، لكن، كضحايا للتسلط، جُردوا من ممتلكاتهم، ورموا في الشارع من قبل جبابرة ذلك الوقت."(ص. 31) مؤكدا أن سبب ذلك مرتبط بسوء التسيير الإداري؛ الناتج عن التسلط السياسي، والعبث بالمواطنين، وإهمال شؤونهم. وأعتقد أن الرحالة يكرس هنا نظرة ثنائية "بلاد المخزن" و"بلاد السيبة".

نلمس حرصاً واضحاً، من الرحالة، على تفسير الواقع المقدم بالبحث عن أسباب الظواهر الملحوظة التي أثارته؛ مثل تفسير سبب انتشار الأمراض بعدة عوامل:

- غياب التلقيح آنذاك،

- السكن غير اللائق،
- وغياب الشروط الصحية الملائمة.

هكذا، يتبين لنا أن إميل كيرن لا يتوقف عند حدود الوصف، بل يتعداه إلى تفسير الواقع الموصوف، ليبدو لنا مزاوجاً بين الوصف والتفسير. كما دعّم تقريره بصور فوتوغرافية نادرة لكثير من المشاهد والمؤسسات التي ذكرها في رحلته، التقطها بنفسه أثناء تنقلاته بطنجة وآسفي والدار البيضاء والجديدة. ويعزى هذا التفسير إلى تكريس فكرة المخزن العاجز عن الإصلاح، مهيئاً الخطاب الذي من أجله ستفرض الحماية على المغرب.

كما صرح بمصادر معلوماته، مبيّناً كيفية حصوله عليها وذلك بالتوجه إلى "القناصل، والأطباء، والضباط، ووجهاء التجار، الذين يقطنون المغرب منذ مدة طويلة." (ص. 22) ممن حصلوا على الحماية الديبلوماسية.

تجلى تركيز الرحالة على الشروط الصحية والظواهر الاجتماعية بالمغرب في تشخيصه لها من خلال مجموعة من النقط المثيرة:

- **السكان وشروط سكنهم السيئة**: يؤكد إميل كيرن على أن أغلب المغاربة يعيشون بأكواخ سيئة وخرِبة وبعضهم ما يزال يقطن الكهوف. ويرزحون تحت نير الحرمان والبؤس والفقر. يقول: "وبما أنني في مجال الحديث عن البؤساء، اسمحوا لي قليلاً بالتشديد على الحرمان والبؤس الموجود لدى الشعب المغربي." (ص. 30) ينام أغلبهم في العراء، ممن يفتقر إلى مأوى، يعانون من الأمراض، والتسول منتشر بشكل كبير بينهم. يقول: "ينبغي أن أخبركم بأن التسول يتم بنسب مهمة. يشاهد هناك العديد من المقعدين والتعساء الذين ليسوا سوى كتل أشلاء بشرية." (ص.

30) مؤكدا على فكرة التسيب، وعدم كفاءة المخزن في ضمان ظروف حياة إنسانية كريمة للسكان.

- **الظروف الصحية**: وقد تحدث عنها من ثلاث زوايا:

• الأولى: تخص الشروط الصحية، على مستوى النظافة، والماء غير الصالح للشرب، وضعف قنوات الصرف الصحي والمراحيض والقمامة.

• الثانية: تهم الأمراض المستفحلة في كثير من المناطق بسبب تلك الشروط، ومن هذه الأمراض ذكر الجذري **(la variole)**، الجرب **(la gale)**، الطاعون **(la peste)**، التيفوس **(le typhus)**، التهاب الأمعاء **(la dysenterie)**،

• الثالثة: تخص البنيات التحتية فيما يتعلق بالتطبيب والمستشفيات، مع التنويه بمجهودات فرنسا والفرنسيين في هذا الجانب.

وفي تشخيصه لوضع المغرب، يبرز مؤهلاته الطبيعية والجغرافية والبشرية، والتي تتمثل في:

- موقعه الجغرافي المتميز على البحر،

- تمتعه بمناخ لطيف،

- العدد المهم لسكانه الذي يقدر بعشرة ملايين نسمة، ولو أن هذا الرقم مبالغ فيه، ونشاطهم ومؤهلاتهم البدنية، وقدرتهم على التحمل.

لكن هذه المؤهلات يعترضها عائقان بارزان وهما:

- هشاشة على مستوى البنية التحتية. يقول: "لا توجد بالمغرب، حتى الآن، لا موانئ، ولا طرق ولا سكك حديدية." (ص. 44).

- الفساد على مستوى التسيير الإداري المتمثل في عشوائية التسيير وتفشي ظاهرة الرشوة، خصوصاص في مجال توزيع المناصب.

يقول: "تعاني الإدارة المغربية من تقصير كبير، يتمثل في التهاون والسلطوية. والاتهامات الخطيرة المحيطة بها." (ص. 29).

ومع ذلك يظهر الرحّالة متفائلاً بمستقبل المغرب، إن مدّت له فرنسا يد العون والمساعدة، بإمكانه تجاوز هذا الوضع والتغلّب على كل المشاكل الصحية والاجتماعية والإدارية التي يتخبط فيها.

وهو ما يقوي الخلفية الاستعمارية للرحلة، ويجعلها تندرج في الأعمال الاستطلاعية التي وجهت إلى تشخيص أوضاع المغرب، وتفسيرها من قبل مختصين ومهتمين في كل المجالات، تكون في خدمة التدخل الفرنسي بالمغرب وحتى يكون مبرّراً ومقبولاً. ما دام أن النص قد نُشر، فقد كان المقصود منه الدعاية لتمرير خطاب أسباب الحماية.

صورة المغربي

يُقدم لنا إميل كيرن صورتين متناقضتين عن المغربي:

• الأولى سلبية: يظهر المغربي في الرحلة وهو يعاني من الفقر والقهر وطغيان السلطة وبطشها، ويرزح تحت نير كل أشكال البؤس والحرمان والأمراض، وهي صورة لا دخل له فيها، وإنما هي ناتجة عن سوء التسيير الإداري والتسلط السياسي.

• الثانية إيجابية: تنبني على الاستعدادات والمؤهلات الطبيعية للمغربي، وتتمثل في ذكائه وسرعة استيعابه وشجاعته ونشاطه وقدراته المتميزة على مستوى العمل والتحمل. يقول مستغرباً من قوة المغاربة: "لاحظت في كل مكان، وخصوصاً بالدار البيضاء، بمزاغان وبآسفي، مغاربة نصف عراة، يحملون حمولات ثقيلة، ويمشون بخطى سريعة." (ص. 44).

ويقول، مركباً بين هاتين الصورتين المفارقتين: "هذا الشعب، المقهور بالبؤس وبكل أنواع الطغيان، يسكن منطقة خصبة، وهو شعب شجاع ونشيط." (ص. 11) مؤكداً أن الصورة الأولى تغطي على الصورة الثانية، ولا توفر لها الشروط الملائمة للاشتغال، وهو الفراغ الذي ستملأه فرنسا بطبيعة الحال في نظر إميل كيرن.

هكذا تتأسس صورة المغربي على مستويين وهما:

- تشخيص الإمكانات التي ينبغي استثمارها،
- إبراز الإكراهات التي ينبغي تجاوزها.

نلاحظ أن الصورة الأولى المقدمة للمغربي، وإن كان يعتريها التعميم الأيديولوجي، فهي صورة تبدو مستقاة من المعاينة والملاحظة، وغير ثابتة، وقابلة للتغيير. إن تدخلت فرنسا بالمغرب، مما يجعلها تبتعد قليلاً عن الصور النمطية المسبقة التي تهيمن عادة على الخطاب الرحلي سواء إلى الشمال أو إلى الجنوب. لكن، يبدو لنا أن الهدف من تبئيرها هو تبرير تدخّل فرنسا بالمغرب.

"أهمية" تدخل فرنسا بالمغرب

نلمس بوضوح سعي إميل كيرن، وفي أكثر من مناسبة، إلى الإشادة بمجهودات فرنسا، دولة وأفراداً، في تغيير الصورة السلبية للمغربي بتحسين ظروف المغرب والمغاربة. يقول: "لقد قدمت فرنسا تضحيات كبيرة، بالرجال والأموال." (ص. 15) وكأنه يجد تبريراً مقبولاً لتدخلها العسكري المحتمل بالمغرب.

وقد حرص الرحالة على إبراز ايجابيات هذا التدخل من خلال مستويين:

• **على مستوى الدولة،** وتتمثل هذه المجهودات في:

- تكوين لجان نظافة في كل المدن المغربية المهمة، آنذاك (طنجة، الدار البيضاء، آسفي...)

- تنظيم إزالة قمامة المنازل،

- بناء المستشفى العسكري بالدار البيضاء،

- إنشاء قنوات الصرف الصحي،

- إرسال بعثات طبية إلى المغرب،

- التسيير الإداري الجيد لمدينة الدار البيضاء، بعد احتلالها.

وأعتقد أن هنا تتجلى مهمة الرحالة كمراقب لما أُنجز في المغرب من قبل فرنسا في الميدان الصحي.

• على مستوى الأفراد: وتتجلى في المجهودات الفردية لبعض المواطنين الفرنسيين الذين حلوا آنذاك بالمغرب وهم من المحميين الديبلوماسيين. يقول: "مواطنونا الشجعان صنعوا الاختراق السلمي، عبر أعمال الخير التي قاموا بها حولهم." (ص. 47) ومن هؤلاء يذكر:

- الدكتور مير بآسفي الذي حول مستوصفه البدائي إلى مستشفى صغير بمساعدة القنصل الفرنسي،

- الطبيب موريس بيني بالمستشفى العسكري للدار البيضاء وخدماته الكبيرة للمرضى،

- النقيب شولز الذي بذل مجهودات كبيرة لتطهير وترميم صهريج كبير بآسفي من مخلفات الاستعمار البرتغالي للسواحل المغربية.

وكأنه بذلك، يحاول إيجاد مبررات "مشروعة" لتدخل فرنسا بالمغرب الذي كانت تتطلبه "الضرورة". يقول كيرن في آخر فقرة من

الرحلة: "إن لفرنسا مهمة ثقيلة تضطلع بها بالمغرب، تتمثل في التعهد بإعداد بعثة للتجديد والحضارة، ستستفيد منها كل الشعوب، وبالدرجة الأولى الشعب المغربي." (ص. 52).

بات من المعروف أن فرنسا جندت كل طاقاتها لتهيئ الجو والمناخ لاستعمارها للمغرب، وقد بدأ هذا المشروع لما صار العلم عضدا للقوة: لقد زار المغرب قبل الحماية عدد وافر من العلماء المستكشفين بمختلف اختصاصاتهم، ومن هنا نفهم كيف أن ليوطي، بمجرد دخوله إلى وجدة سنة 1908 أطلق أوراشاً عديدة لتهيئ البنى التحتية والصحية للمدينة؛ ليحس السكان أن الفرنسيين قاموا بأعمال جليلة.

وتجدر الإشارة، إلى أنني ذيلت النص بمجموعة من الهوامش لتوضيح ما غمض فيه؛ سواء فيما يخص الترجمة أو التعريف بعلم أو مدينة، أو التعليق على بعض الأفكار التي تحتاج الى ذلك. كما ألحقت الترجمة بالنص الفرنسي.

وفي ختام هذا التقديم أتوجه بالشكر الجزيل لكل من ساهم، من قريب أو بعيد في إخراج هذه الترجمة إلى حيز الوجود، وأخص بالذكر الأساتذة أحمد بوحسن، شعيب حليفي، عبد الرحيم مؤذن، الحبيب الدايم ربي، [illegible]، أسماء المكناسي، وأحمد بوغلا الذين لم يبخلوا علي بتوجيهاتهم السديدة.

نص الترجمة

أيها السادة، وأنا أُحدِّثكم اليوم عن المغرب، سأكتفي بتقديم الخطوط العريضة للوقائع التي أثارتني خلال رحلتي إليه.

عند الانطلاق من محطة مرسيليا، كان لزاماً علينا عبور طريق طويلة، واجتياز أزقة في حالة سيئة، وأحياء متسخة، بُغية الوصول إلى رصيف ركوب لابينيد (la Pinède)[7].

على الباخرة، أخذنا قُمرة، تخلّى عنها أحد المسافرين، قادم بلا شك من الشرق، فقط بعد تنظيف عام وبدون تطهير. مع ذلك، لم أكن أعرف سوى شركة واحدة تعبر البحر الأبيض المتوسط، في اتجاه المغرب، تُطهّر قُمراتها. أنا آسف إذ أجد نفسي مضطراً

7. Maurice ZIMMERMANN, « L'agrandissement du port de Marseille », Annales de Géographie, 151" Numéro 151, Volume 28, Année 1919, pp. 77-78.

لأن أقول إن هذه البواخر الأجنبية، مثل الهولندية والانجليزية، هي المفضلة لدى المسافرين، لما تُوفّره من راحة ونظافة دقيقة بين جنباتها.

بعد رحلة بحرية استغرقت ثماناً وأربعين ساعة، وصلنا إلى طنجة، حيث هاجمنا على الفور عدد كبير من العبّارات (barcasses)[8] العربية. وقد جاء مفتش صحي إسباني على متن واحدة منها، ليخبرنا برفضه الترخيص لنا بالرسو، بسبب الكوليرا المتفشية في مرسيليا. وكان من الطبيعي أن يحتج كل المسافرين المتوجهين إلى المغرب على هذه الطريقة في التعامل والتي لا تخلو من عنف، وفضلاً عن ذلك، فالقبطان أخبرنا، بأنه إذا تعذّر علينا الرّسُو، سيُبحِر بنا إلى روتردام.

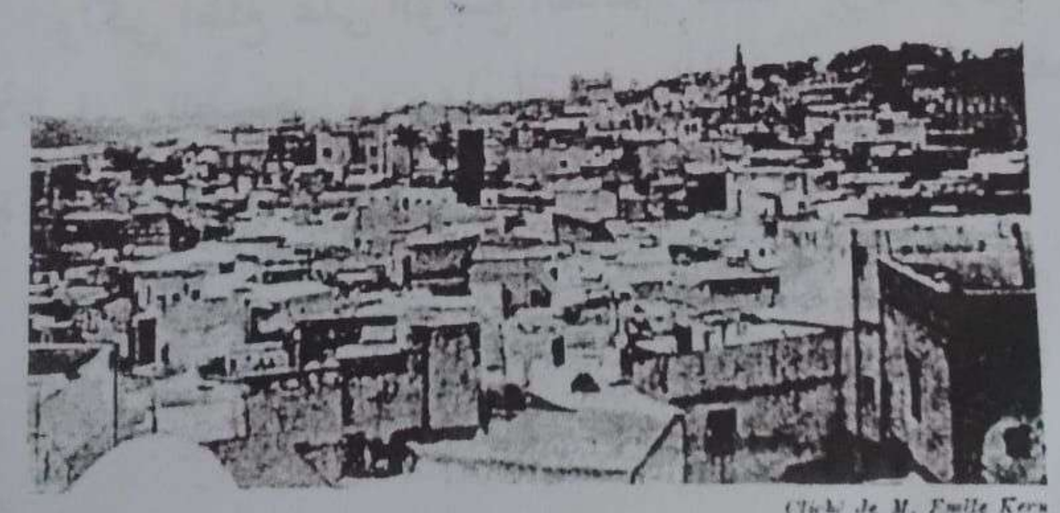
كما كان الحاج الطاهر وسي التهامي، وهما الابنان الأصغران للمقري الوزير المغربي المعروف[9]، من العابرين معنا، في هذه الرحلة، فباشا طنجة، وهو واحد من أبنائه أيضاً قد جاء بعبارته المزينة بالعلم المغربي الأحمر، بهدف اصطحاب

8. كانت تستعمل لنقل البضائع والمسافرين من السفن حين لا تستطيع هذه الأخيرة الرسو في المرفأ.

9. محمد بن عبد السلام المقري. الصدر الأعظم بالمغرب (رئيس الوزراء). شغل هذا المنصب منذ سنة 1337 هـ ـ 1919م. وهو من مواليد سنة 1261 هـ ـ 1845م. توفي صباح يوم الاثنين 13 صفر 1377 هـ ـ 9 شتنبر 1957م. عن عمر يناهز 115 سنة. أنظر ترجمته في موسوعة أعلام المغرب. ج. 9، 3330. تنسيق محمد حجي دار الغرب الإسلامي، 1980.

أخويه الأصغرين، لكنه اضطر إلى العودة إلى طنجة مثل الآخرين.

هكذا، ظللنا، طوال ثلاث ساعات، أُسارى حيرة شديدة، زارنا خلالها الطبيب الفرنسي. فتَمّ جمْع كل المسافرين المتوجّهين إلى المغرب، وبعد فحْص كلي، رخّص لنا الطبيب بالنزول من السفينة.



Cliché de M. Emile Kern

Tanger Vue générale.

منظر عام لمدينة طنجة

10. هنا يحاول الرحالة إيجاد تبرير اجتماعي وإنساني لتدخل فرنسا بالمغرب.

بدل استعراض متتابع لكل المدن والأماكن التي أتيحت لي زيارتها بالمغرب، سأتحدث عن الحالة الاجتماعية للشعب المغربي، والظروف الصحية التي عاينتها هناك. ويمكن القول إن هذه الظروف كانت واحدة في كل المدن.

تُلاحظ في كل مكان نفس القذارة، نفس الأكواخ البئيسة، نفس الحرمان، وتُصادف هناك نفس الأمراض.

إلى جانب هذا، تُلاحظ المجهودات التي بذلتها فرنسا منذ سنوات، من أجل التخفيف من معاناة الأهالي ومعالجتهم، وهنا يكمن الجانب المُميّز جداً في تدخلها العسكري بالمغرب[10].

ولكي أطلع على الوضع القائم، كنت أتوجه إلى القناصل، والأطباء، والضباط، ووجهاء التجار، الذين يقطنون المغرب منذ مدة طويلة[11].

11. يقصد المحميين القنصليين. في إطار نظام سياسي وقضائي كان من نتائجه عدم الخضوع لقوانين البلد رغم حمل جنسيته والإقامة في أرضه، وعدم أداء الضرائب، وعدم القيام بالواجبات الوطنية. وتعود جذوره إلى سنة 1763 عند توقيع المعاهدة المغربية ـ السويدية، إلا أنه لم يأخذ شكله المهدد لكيان الدولة المغربية إلا بعد حرب إيسلي في 1844 مع فرنسا ثم استفحل بعد هزيمة حرب تطوان مع إسبانيا في 1860. وكان يضم أربع طبقات بدءا من المحمي وانتهاء بالمتجنس، مرورا بالمخالط والسمسار. (ينظر عبد الوهاب بن منصور، **مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب من نشأتها إلى موئتمر مدريد سنة 1880**، المطبعة الملكية، الرباط، ط. 2، 1985).

بداية، يجب القول إنه في كل مدينة مهمة، توجد لجنة نظافة، مُكوّنة من مختلف قناصلة الأمم المتعددة ومن وجهاء التجار. وتقوم هذه اللجنة بوضع التدابير التي تقتضيها النظافة وتُحدّد، في الآن ذاته، الأعباء التي يجب تحمّلها لتغطية مصاريف الأشغال اللازمة.



الماء الصالح للشرب

أول ما يُثير المرء هو أن قنوات الماء الصالح للشرب منعدمة هناك. ويتم الاقتصار فقط على تجميع مياه الأمطار في مستودعات مائية[12]، وهذا الماء لا يمكن اعتباره صالحاً للشرب، لأنه يحتوي على حوينات صغيرة متكاثرة، كانت، حين قطنت بأحد المنازل الرئيسية بآسفي مدة خمسة عشر يوماً، سبباً في إفساد كثير من أشرطة صوري الفوتوغرافية.

من الواجب، إذن، تغلية هذا الماء حتى يصبح صالحاً للشرب. لكن خلال فصل الصيف تصير هذه المستودعات المائية غير كافية، مما يُحتّم الاستفادة من مياه الآبار.

---

12. تسمى في كثير من مناطق المغرب بالمطفيات، ويطلق عليها بنواحي الحوز ودرعة وتافيلالت الخطارات، وتوجد بكثرة على ضفاف الأودية لتخزين مياه الأنهار من أجل السقي، وتقوية الفرشات المائية، كما تساهم في التخفيف من خطورة الفياضانات.

تبقى هذه الآبار، المشرعة عموماً على كل الرياح، وعاء لكل أشكال القذارة المحيطة بها. تستقبل كل القاذورات المتسربة عبر التربة. وهو ما يجعل ماء الآبار، إذن، أكثر تلوثاً من ماء المستودعات.

المياه المستعملة

أما بشأن المياه المستعملة، فقد بذلنا، طوال الوقت، في كل الأمكنة المحاذية لشاطئ البحر، مجهودات من أجل إنشاء قنوات تحت أرضية لتصريف المياه المستعملة خارج المدينة وطبعاً في اتجاه البحر. لكن كانت هناك حلول معينة تمنع استمرار مدّ هذه القنوات، ممّا كان يُحتّم علينا الالتفات إلى بعض أجزائها المتحللة، وإصلاح البعض الآخر، فضلاً عن تنظيفها تنظيفاً جدياً.



الإدارة

تعاني الإدارة المغربية من تقصير كبير، يتمثّل في التهاون والسلطوية. والاتهامات الخطيرة المحيطة بها. وأخطر هذه التهم ما يقال في كل مكان إن المناصب تُمنح لمن يدفع أكثر، وفي غالب الأحيان ما نرى موظفاً سامياً يُعوّض بآخر بدون سبب مقنع، سوى المبلغ المالي المرتفع جداً الذي يقدمه هذا الأخير من أجل الحصول على هذه الوظيفة. وقبل كل شيء سيتجه هذا الموظف الجديد إلى استرداد ما أنفقه، عن طريق استخلاصه من مرؤوسيه.

الحاصل، أن كل الموظفين المغاربة خاضعون للمخزن، يعني أن توظيفهم يتم من قبل حاشية السلطان، أو بواسطة السلطان نفسه، ويُؤدّون مقابلاً مادياً من أجل الحصول على تكليف ما. وعلى ما يبدو أن أجر كل تكليف معروف. ويتم هذا بالطريقة الشائعة جداً في العالم، لأنه عندما يُعوض موظف مغربي، يقال إنه اشتكى بصوت مرتفع من التعسّف المرتكَب في حقه، بعد أن أُجبر على دفع مبلغ ما.

وهكذا ينتهي الموظفون المغاربة إلى اتخاذ الإجراءات الأكثر لامعقولية من أجل كسب المال. وخلال إقامتي هناك، اقترح باشا مدينة مهمة خلق مصدر جديد للمداخيل بإصدار ضريبة على المتسولين.

وينبغي أن أخبركم أن التسول يتم بنسب مهمة. ويُشاهد هناك العديد من المقعدين والتعساء الذين ليسوا سوى كتل أشلاء بشرية.

وبما أنني في مجال الحديث عن البؤساء اسمحوا لي قليلاً بالتشديد على الحرمان والبؤس الموجود لدى الشعب المغربي. يُلاحظ في كل مكان عدد كبير من الفقراء ينامون في العراء، نصف عراة. من حسن الحظ أن حاجاتهم تتلخّص في تعبيرهم البسيط بأن يكونوا قادرين على العيش في صحة جيدة، وإلّا فسيموتون على قارعة الطريق.

علاوة على ذلك، فعدد الوفيات مرتفع بشكل كبير، لكن وفي غياب إحصائيات أكيدة، من المتعذر تقديم صورة دقيقة عنها.

ومن خلال استجوابي لقواد سابقين وأغنياء عرب[13] حول حرمان مواطنيهم الفقراء، المفترشين للعراء. أجابوني بأن الكثير

13. يقصد بالعرب المغاربة وسترد في فقرات لاحقة بنفس المعنى.

منهم، كانوا في فترة ما يتولون مناصب عُليا، ويمتلكون ثروة، لكن، كضحايا للتسلط، جُرّدوا من ممتلكاتهم ورُموا في الشارع من قِبل جبابرة الوقت[14]. ومع ذلك فهم سعداء ما داموا أحياء وأحراراً. وما يثير في هذا الأمر هو أن الأغنياء يحرصون على عدم إظهار ثرواتهم[15]، لأنه في هذا البلد العجيب، حيث تنتشر عبارة "اعمل بجد وبخضوع"[16]، لن يكون أحد في مأمن ما دام النظام المغربي الحالي قائماً[17]. أعيد التأكيد على أن مئات من الكائنات البشرية تعيش بدون مأوى، تنام على الأرض، تُعذّبها كل أنواع الأمراض وتقرضها الحشرات الطفيلية.

---

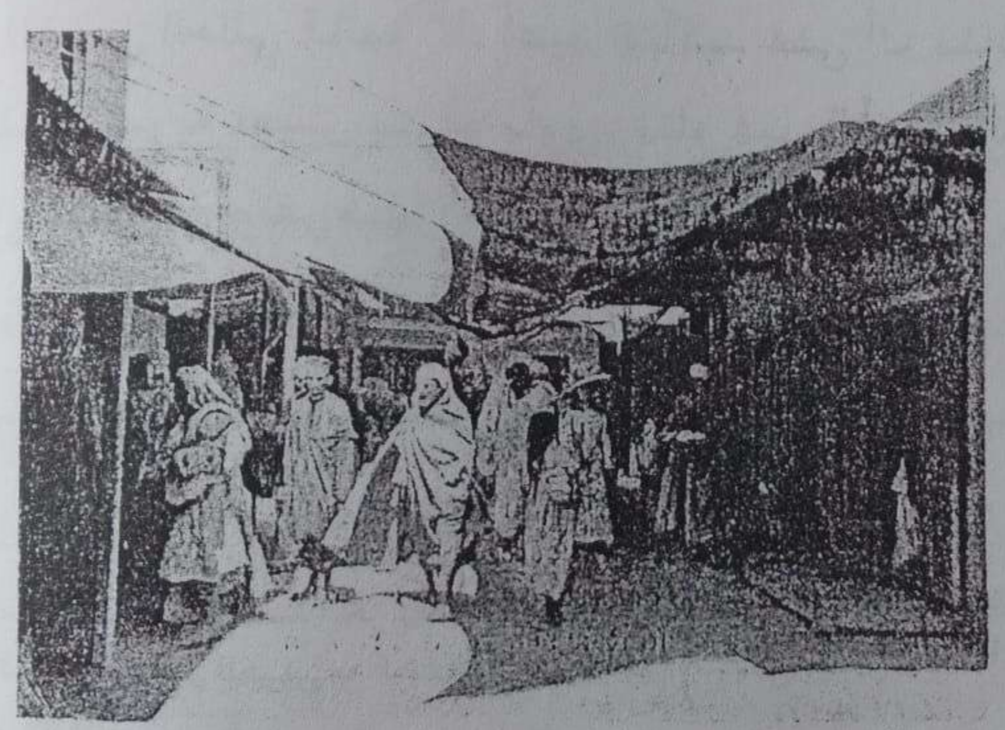
14. هذه الممارسات تسمى الكلمة المخزنية "تْرّكه"، بمعنى سلبه كل ممتلكاته، كما وقع للقائد أشعاش لما قدم على العاهل المغربي مع الصفار، فسجن الأول وسلبت منه كل ثروته، أما الثاني فقد احتمى بالزاوية الفاسية.

15. هذه الملاحظة سجلها كثير من الرحالة الأوربيين إلى المغرب كعلي باي وودوس. مثلا يقول الرحالة الانجليزي وندوس: "كل شخص اغتنى عن طريق التجارة أو الصناعة يبذل كل جهده في إخفاء غناه وإظهار فقره." (رحلة إلى مكناس، ت. زهراء إخوان، منشورات عمادة جامعة مولاي إسماعيل، 1993، ص. 42).

16. هي ترجمة للعبارة الفرنسية (Faire suer le burnous) التي ظهرت في القرن العشرين وتعود إلى الفترة الاستعمارية الفرنسية بشمال إفريقيا. ومعناها إجهاد الأهالي على العمل الشاق بشكل مبالغ فيه حتى يبلل عرقهم برانسهم التي كانوا يلبسونها، ويظهرون خضوعهم.

17. يحاول الرحالة أن يجد تبريراً لتدخل فرنسا بالمغرب بإظهار سوء التسيير الإداري للمخزن المغربي آنذاك.

بإمكان الفقراء بلا شك الذهاب إلى المساجد، حيث يمكنهم أن يتوضؤوا، لكن المساجد غير كافية لإيواء عدد كبير من البؤساء، الذين يبدون من حسن الحظ قادرين على تحمل مصيرهم برباطة جأش. وتُقدِّر الأحكام الفقهية القرآنية والممارسات الإسلامية بشكل جيد بعض الإجراءات الوقائية، مثل الوضوء والغسل الدوريين.



Cliché de M. Émile Kern.

Casablanca. Boutiques marocaines.

حوانيت مغربية بالدار البيضاء

لكن قبل ذلك، إن كان ممكناً ولو بأبسط الوسائل، القيام في كل مكان بوضوء مختزل، الأمر الذي لا يعني الكثير، دون

أن يكون معادلاً له، حين يتعلق الأمر بأخذ حمام، خصوصاً وأن المسابح والحمامات المغربية غير متوفرة في كل مكان.

لو قُدمت تسهيلات للمغاربة، لتعوّدوا عن طيب خاطر، وإلى حدّ كبير، على الحمامات الموضوعة رهن إشارتهم.

ينبغي في كل الأحوال تغيير العادات الحالية للمغاربة، من أهمها العادة المشينة المتمثلة في عدم تغيير الملابس، والاحتفاظ بالملابس نفسها ليلاً ونهاراً، يعني النوم بالملابس نفسها التي كانوا يرتدونها بالنهار. ليس هناك ما يثير الدهشة، إذن، إذا رأينا الطفيليات تغطيهم من رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم. كما يبدو أن هذه العادة هي السبب في عدم قدرة الكثيرين على التخلص من الجَرَب.



المراحيض

كانت المراحيض في بعض الأحيان موصولة بأنابيب الشارع، لكن نقص المياه، يجعل من أنبوب العادم يبدو شبيهاً بحفرة صغيرة.

توجد بكثير من المنازل المغربية حفر المراحيض، ويمكن للمرء أن يتخيل بسهولة ختم الحفر، التي ليست عميقة، وتعرف تقصيراً نسبياً. الأمر الذي يجعل كل الآبار القريبة منها معرضة للتلوث. نظراً لتعود كثير من العرب (يقصد المغاربة) على إنشاء مستودعات المياه والآبار والمراحيض جنباً إلى جنب.

ومن أجل تفريغ هذه الحفر، يمكن تصور، في بعض الأماكن، عملية بسيطة جداً: تتمثل في وضع المواد المستخرجة فقط أمام المنازل، على طول الطريق، ولا يتم نقلها إلا مرة واحدة حين تُجف كلياً.



الكنس وقمامة المنازل

من الملاحظ أن كنس الأزقة وإزالة قمامة المنازل مقبولان إلى حدّ ما، ويتمّان بانتظام كبير في كل المدن المغربية التي زرتها.

في بعض المدن تتم إزالة قمامة المنازل مرتين في اليوم، خصوصا بالدار البيضاء، المدينة التي تتمتع بتسيير إداري جيد، من وجهة نظر صحية، بواسطة القائد ديسيني (Dissigny) الذي عمل بقوة على إنشاء قنوات صرف المياه وتبليط الشوارع وكنسها ونَظَّم عملية إزالة قمامة المنازل.

وتجدُر الإشارة إلى أمر مثير، لاحظته بالدار البيضاء، وهو تأمين كنس الشوارع بواسطة سجناء عرب (يقصد مغاربة)، مشدود كل واحد منهم إلى آخر بحزام، وعبْر حبل لا يُعيق أبدا حركاتهم. لاحظت أيضا أن هؤلاء السجناء يفكّون القيود، ويعيدونها بدون تدخّل الحارس. في تساؤلي عن هذه الطريقة لتأمين الكنس بواسطة

سجناء مقيّدين واحداً إلى الآخر، كان الجواب؛ حتى يكونوا عبرة لغيرهم. وقد لاحظت طريقة من هذا النوع، منذ سنوات، بمدينة فالزبورك (Phalsbourg)[18]، حيث كان يتم استخدام سجناء، غير مقيدين، في الطريق العمومي تحت حراسة الشرطة.

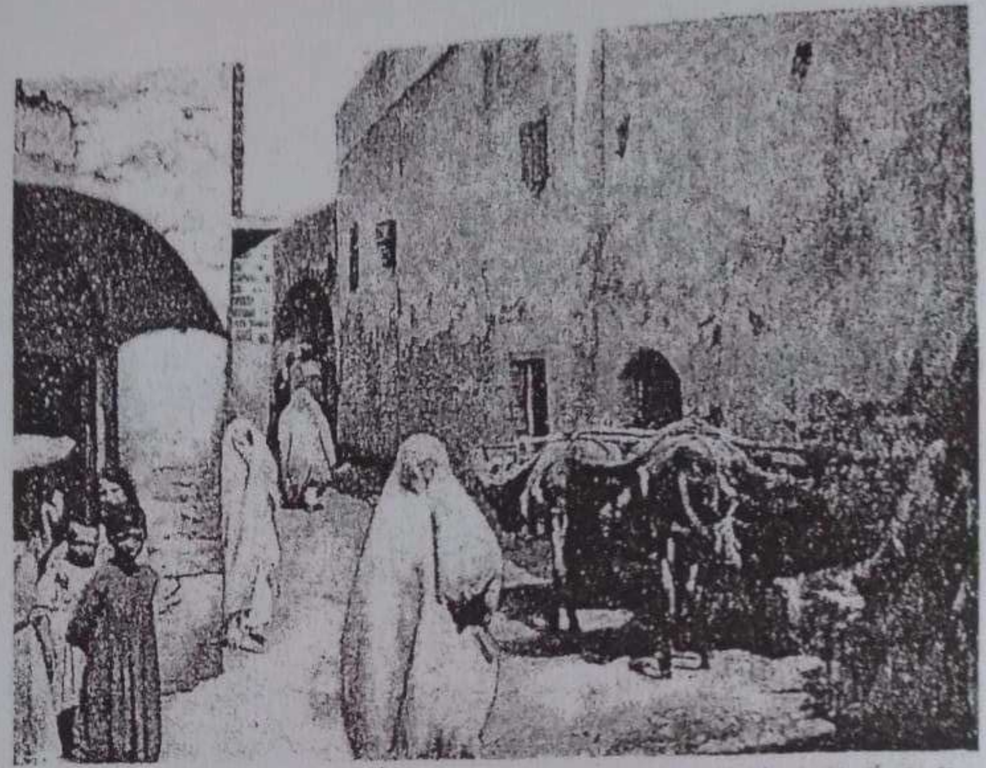
ويتم نقل القمامة بالدار البيضاء بواسطة عربة. ما أن يضرب سائقها ناقوسه حتى يخرج الناس قمامة منازلهم.

بطنجة، بآسفي، وبكل المدن التي لا يمكن أن تسير السيارات بأزقتها الضيقة، يتم نقل الأزبال بواسطة حمير، تحمل أخراجاً[19]؛ لقد شاهدت بطنجة نفسها أن هذا الخُرْج حين تملأ أوْناه، تتم تغطيتهما بقُماش. عادة ما تُنقل القمامة خَارج المدينة، أو تُرمى مباشرة في البحر، أو فقط بجانبه، حيث تساهم في تخمّر الجو وتسميم الهواء، في انتظار قدوم مدّ استثنائي ليُزيلها.

---

18. مدينة فرنسية تقع بمنطقة اللورين شمال فرنسا يعود تأسيسها إلى نهاية القرن الميلادي السادس عشر.

19. جمع خُرْج، وفي مادة خرج من لسان العرب لابن منظور: "والخُرْجُ: من الأَوعية، معروفٌ، عربيّ، وهو هذا الوعاء، وهو جُوالِقٌ ذو أَوْنَيْنِ، والجمع أَخْراجٌ وخِرَجَةٌ مثلُ جُحْرٍ وجِحَرَة." ويسميه المغاربة "الشواري".



Saffi. Collecte des ordures ménagères.

جمع قمامة المنازل بأسفي

بآسفي، كانت تحمل القمامة خارج المدينة سابقاً، أما اليوم فيتم رميها من أعلى جرف إلى البحر مباشرة.



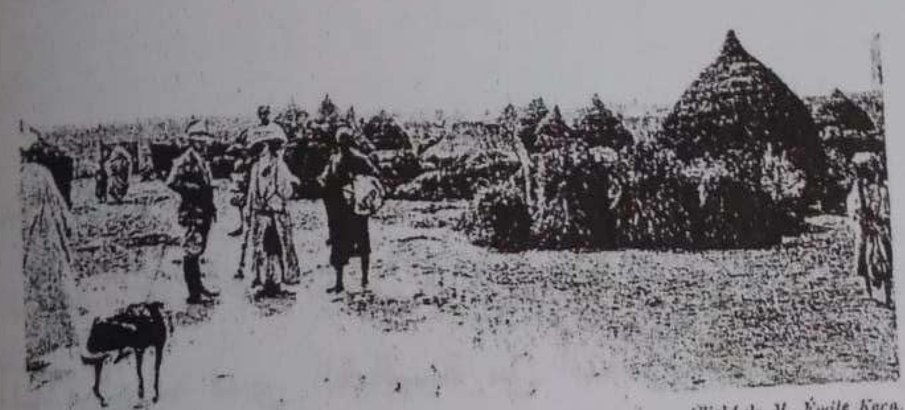
السكن وظروف العيش

يعيش العربي (يقصد المغربي) في التجمعات السكنية الكبرى فقط، كالمدن، داخل منازل، لا تعدو، إذا نُظر إليها من الداخل، أن تكون لدى الغالبية من الناس، سوى أكواخ بئيسة. ويعيش الأهالي خارج المدن، غالباً، تحت خيام مُرقّعة وقَذِرة، أو داخل أكواخ مبنية من أغصان الأشجار والطين، تَعُم داخلها القذارة. ورأيت بـ مازغان[20] أكواخاً بئيسة يُمكن اعتبارها مساكن فخمة بالقياس إلى ما رأيت بآسفي، المنحدر أصحابها من سوس، المعروفة جداً بأسمالها الزرقاء وهوائها العنيف والوجه المكشوف

---

20. الاسم القديم لمدينة الجديدة الحالية، تبعد عن الدار البيضاء بحوالي مائة كلم. كانت عبارة عن قصبة صغيرة برتغالية تم إحداثها سنة 1514م، التصميم الأول لهذه القصبة كان للأخوين، "فرانسيسكو وديبكو دواررودا" وهما مهندسان يتمتعان بشهرة كبيرة نظراً لإنجازاتهما، سواء في البرتغال أو في المدن المغربية المحتلة. تم توسيع "مازاكان" سنة 1541م من قبل البرتغال خصوصاً بعد انسحابهم من أكادير وآسفي وأزمور.

لنسائها، إذ يُخيّمون فوق أكوام القمامة القديمة النتنة، والباعثة على الغثيان، بينما يُخيم الآخرون متجاورين، تحت خيام داخل قذارة عجيبة، في حين ما يزال آخرون يسكنون مغارات مثل سكان الكهوف.



Cliché de M. Émile Kern.

Mazagan. Huttes indigènes.

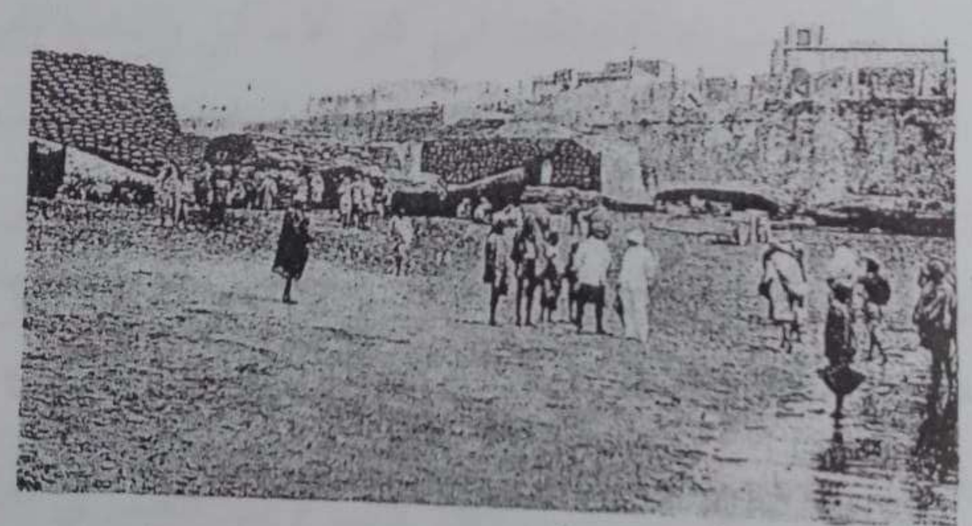
أكواخ الأهالي بمزغان

في الغالب ما تكون المقابر المغربية دمامل المدن المحيطة بها، وتَحُدّ من توسعها، وتُسهم في تلويث الآبار بسبب التسربات العديدة للميكروبات.

ومن الواضح أن هذا الوضع لا يُمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية. هناك إذن واجب للتمدين يجب الاضطلاع به يتمثل في تحسين ظروف اجتماعية مثل هذه.

يسكن هذا الشعب، المقهور بالبؤس وبكل أنواع الطغيان، منطقة خصبة، وهو شعب شجاع ونشيط.

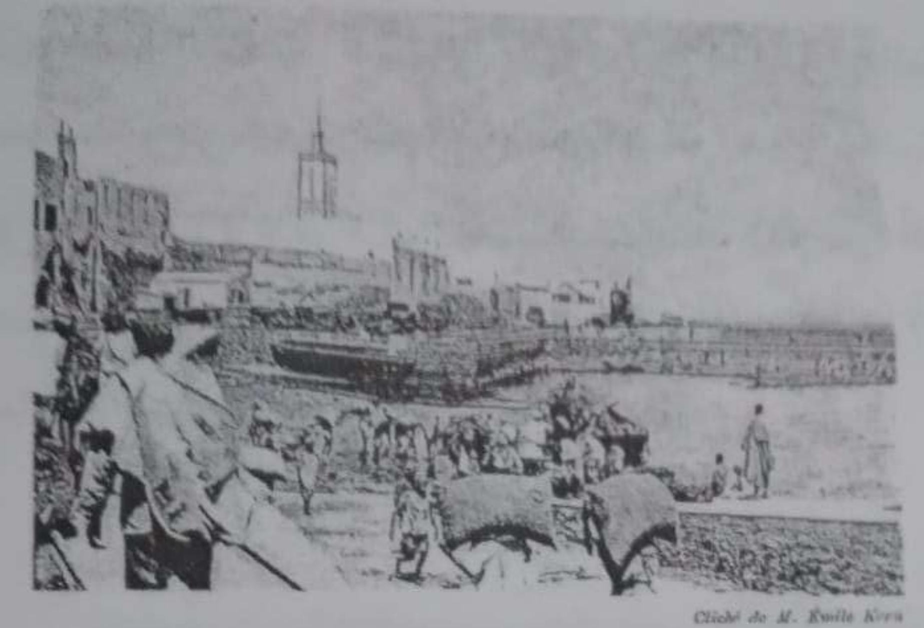
ومن أجل تقديم فكرة عن أهمية منتجات الأرض، أقول إن آسفي يدخلها أثناء فترة الحصاد حوالي ألفي جمل كل يوم مُحمّلة بكل أصناف الحبوب.



Saffi. Dépôt de grains au bord de la mer. *Cliché de M. Émile Kern*

مستودع الحبوب على شاطئ البحر بآسفي

ولاحظت في كل مكان، وخصوصاً بالدار البيضاء، بمزاغان وبآسفي، مغاربة نصف عُراة يحملون حمولات ثقيلة ويمشون بخطى سريعة.



Casablanca. Embarquement de grains.

تحميل الحبوب بالدار البيضاء

لا توجد بالمغرب، حتى الآن، لا موانئ، ولا طرق ولا سكك حديدية، وكل من يعتزم القيام بأشغال هناك سيجد اليد العاملة متوفرة بعين المكان. يبدو لي أن المغربي ذكي وقادر على الاستيعاب، ولا توجد، من وجهة نظري، سوى الكتاتيب القرآنية، حيث يُردّد الأطفال، من الصباح إلى المساء، الآيات القرآنية، دون تعلّم أي شيء آخر[21]، مما يعرقل تطورهم الذهني. كما تساهم عادة تدخين القنب الهندي (الكيف) البغيضة، المتداولة بشكل كبير، في إضعاف القدرات الذهنية لعدد كبير من الناس.

---

21. هذا يؤكد اقتصار إميل كيرن على المدن التي زارها، وفي ذلك نوع من التعميم الذي يقصي الجامعات التقليدية المغربية: مثل القرويين بفاس وابن يوسف بمراكش التي كانت تدرس كل أصناف العلوم.

الأمراض والأطباء

الأمراض التي صادفناها في كل الأماكن والمدن تقريباً، هي التهاب الأمعاء (la dysenterie)، التيفوس (le typhus)، بسبب سوء التغذية، ورداءة المياه، وانتشار الطفيليات والبعوض والذباب الذي لا عدّ له ولا حصر وبسبب قذارة الأكواخ التي يرزح تحتها المغاربة.

لاحظت هناك أيضاً حالات كثيرة من الجُذري (la variole)، خصوصاً وأن التلقيح لم يستعمل بعد، وأحياناً يُخلّف الطاعون (la peste) أيضا ضحاياه.

وأثناء إقامتي بمازغان، اكتشفت أن الطاعون كان على بُعد كيلوميترات قليلة من المدينة، وبآسفي، قيل لي إن الطاعون سجّل ظهوره باتجاه مراكش.

شاهدنا بالدار البيضاء، منذ مدة، حالة من حالات مرض الطاعون، وتم اكتشاف أن المريض قَدِم من مكان يبعد

عن الدار البيضاء بحوالي خمسة وثلاثين كيلوميتراً. هناك، وجدنا أيضاً سبعة أو ثمانية مصابين بالطاعون، كلهم قضوا. ويتعلق الأمر بيهود كانوا يعيشون في ظروف صحية جد مزرية.

وبالإمكان إسداء خدمة للأهالي، تتمثل في تقويض كل المساكن الخربة القذرة أو الأكواخ التي تحتشد داخلها كائنات بشرية بإضرام النار فيها.

ويصعب القضاء على الأمراض الجلدية المستفحلة بين الأهالي، وتحديداً بسبب عادة النوم بالملابس نفسها التي كانوا يلبسونها طيلة اليوم.

لكن المرض الذي خلّف أضراراً كبيرة، هو الزهري (la syphilis): ما بين تسعين وخمسة وتسعين في المائة من المرضى من ضحاياه.

للأطباء، إذن، هناك حقل واسع حيث يمكنهم ممارسة نشاطهم وتقديم تضحياتهم.

الأهالي، جهلة وسُذج مثل الأطفال، ولهم، عموماً، ثقة كبيرة في الساحر أو في الطبيب الشعبي، هذا الأخير هو الطبيب المغربي، ويُرى غالباً جالساً تحت خيمة صغيرة بالأسواق، حيث يُقدّم استشاراته الطبية ويبيع عقاقيره. وغالباً ما يُلاحَظ بعض المغاربة يحملون حُروزاً، مشدودة إلى الرأس، بهدف إبعاد شرّ ما.

وعند انتصار الطبيعة واقترابه من القضاء على الشر، يدّعي الساحر أو الطبيب الشعبي مسؤولية شفاء المريض، لكن حين يتعلق الأمر بمرض عنيد، يتفاقم، يقول المتواطئان للمريض: "يمكنك البحث عن الشيطان الآن، سترى جيداً ما هو قادر على فعله." الشيطان بطبيعة الحال هو الطبيب الأوربي. رأيت هؤلاء الشياطين وهم يباشرون أعمالهم بمدن مختلفة زُرتها. لقد سمعت جيداً ورأيت أطباء فرنسيين لا غير، رجال علم، مخلصين في عملهم، يتعالون على كل مديح. بمستوصفات سيئة التموقع، غالباً داخل ساحة، بأماكن غير ملائمة، صَنَع مواطنونا الشجعان الاختراق السلمي، عبر أعمال الخير التي قاموا بها حولهم. وبتمكنهم من لغة البلد والتكلم بها[22]، ومعرفة عاداته وتقاليده، كسبوا ثقة من عالجوهم وفي أغلب الأحيان من أشفوهم.

يُقدّم كل واحد من هؤلاء الأطباء، المحميين من قبل المفوضية الفرنسية، من مئة إلى مائة وخمسين استشارة طبية في اليوم. كثيراً ما يأتي عديمو البصيرة من المغاربة، إلى المستوصف بجروح

22. كان لتعلم لغة البلد دور كبير في اختراق المغرب، وللتأكيد على أهميتها يقول أجيست موليراس: "ولاختراق المغرب واكتشاف أبعد زواياه وأركانه، يلزم على كل أوربي راغب في المغامرة داخل هذا البلد، التسلح بعلمين، يشكلان في الحقيقة علماً واحداً: يجب عليه معرفة العربية الكلاسيكية بشكل لا بأس به، ومعرفة العربية الدارجة بشكل جيد". عن المغرب المجهول، الجزء الأول اكتشاف الريف، ترجمة عز الدين الخطابي، منشورات تيغراز الريف، 2007، ص. 14).

خطيرة، ويعلنون عن أمر آخر يختصر في استشارة طبية بسيطة. وفي الغالب ما يتعلق الأمر بعمليات جراحية يجب إجراؤها؛ هكذا تمت معاينة أهمية البعثة الطبية الفرنسية المغتربة بالمغرب.

يُعدّ الدكتور مير (MAIRE)، بآسفي، واحداً من هؤلاء الرجال المحببين، كان يحلم بتحويل مستوصفه البدائي إلى مستشفى صغير، المشُيّد إجمالاً على أرض كان قد وضعها قائد سابق رهن إشارة قنصلنا، من أجل هذا الغرض. هل يمكننا أن نسهل له الوسائل لتحقيق حلمه النبيل؟ هذا الرجل الرائع، الذي يشتغل بجدية، منذ مدة قضى عليه الإرهاق وغياب الأدوية التي كان يرفضها وكان يقدمها بإسراف للآخرين. كان وحيداً بغرفة صغيرة، بدون عناية وبدون إسعاف، ينتظر برباطة جأش نهايته. قلق القنصل الفرنسي، السيد هوف (Hoff)، على غياب الدكتور عن المستوصف، فذهب إليه رفقة زوجته وكاتبه. ولزمت زوجة القنصل جانب سرير المتخلى عنه، عالجته وأنقذت حياته.



Cliché de M. Émile Kerr

Saffi. Le dispensaire.

مستوصف آسفي

أقول إن هذا البلد الذي يتمتع بموقع متميز على البحر، وبمناخ لطيف، ويُقدّر عدد سكانه بعشرة ملايين[23]، بإمكانه أن يحتويهم ويؤمن لهم الغذاء بسهولة خمس أو ست مرات. إصابات المغاربة أبناء البلد بالأمراض، ناتجة عن الشروط الصحية السيئة، التي يعانون منها. ويمكن أن تتناقص جل الأمراض، المنتشرة هناك بشكل كبير، بنسبة كبيرة.

---

23. يبدو هذا العدد تقديرياً من الكاتب. فلم يكن عدد سكان المغرب، أنذاك، يتجاوز الستة ملايين. ففي سنة 1960 كان عدد سكان المغرب 11.6 مليون نسمة. فلا يُعقل أن يكون نمو السكان ضعيفاً بهذه الدرجة.

لقد قدمت فرنسا تضحيات كبيرة، بالرجال والأموال، وبإمكاننا أن نرى بالدار البيضاء في كل لحظة عودة عدد كبير من الجنود الشبان المنهوكين بسبب الأمراض. هذا الموكب الكبير للشبان، صرعى الأمراض، المصابين بها في الأماكن التي كانت تحت حمايتهم، تجعل من الصعب عيادتهم، وهو إحساس، تتفهمونه، منعني من أخذ صُوَر لهم.

يوجد، مع ذلك، بالدار البيضاء، مستشفى عسكري، مهيأ بشكل جيد، على مساحة كبيرة، حيث تم تشييد عدد كبير من المعسكرات، وتم تنصيب عدد كبير من الخيام، يُستشفى بها معدل ألف مريض وجريح.



Cliché de M. Emile Kern.

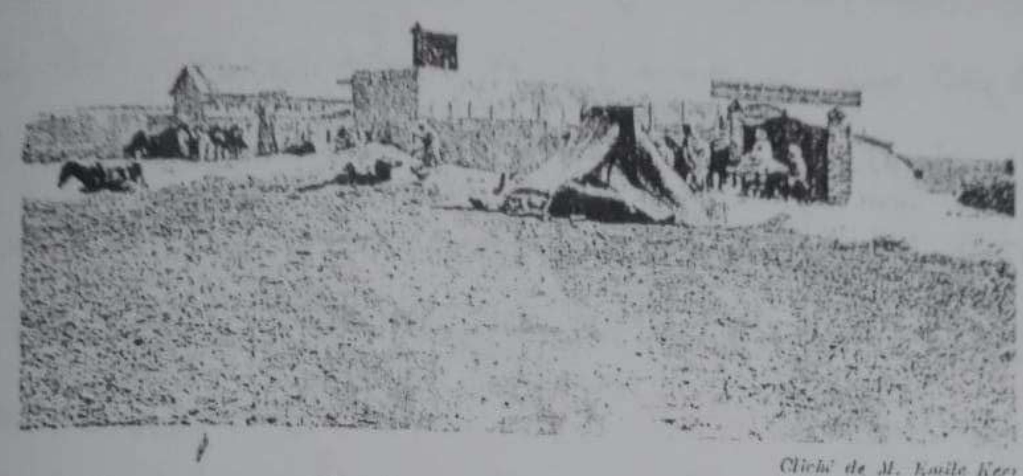
Casablanca. Hôpital militaire.

المستشفى العسكري بالدار البيضاء

تمكنت من زيارة هذه المؤسسة البسيطة جداً إلى حد الروعة، وبفضل الطبيب الرئيسي موريس بيني (Maurice Pignet)، الذي التقيته أثناء زيارتي، تمكّنت من رؤية مختبر علم الجراثيم (Laboratoire de Bactériologie)، حيث يجري أبحاثه، إنه رجل علم مُميّز، نافذ في مهمته. ويمكنني أن أضيف أيضا أن المرضى الذين تمكنت من رؤيتهم على انفراد، أخبروني بطريقة مؤثرة عن العناية التي يحظون بها.

المخلصون غير نادرين بالمغرب، وأثناء إقامتي بالجنوب المغربي، حيث تعرّفت على النقيب شولز (Schultz)، وهو ضابط فرنسي، وقائد طابور الشرطة المغربية بآسفي. لقد بذل مجهودات فوق طاقة البشر من أجل تطهير الصهريج الكبير، الذي يُعدّ واحداً من مخلفات الاستعمار البرتغالي، وملأه رفقة رجاله. رمّمه كلياً بواسطة إمكانات مادية، وأشياء، وكذلك بفضل الرجال الذين ينعمون اليوم بصحة جيدة.

تبدو لي مداخلتي غير كاملة، إذا لم أُشر لكم إلى مؤسسة، صادفتها أثناء مروري، خارج آسفي، مُشيدة على جانب طريق مراكش، من قِبل الإخوة مانيسمان، وهو اسم غالباً ما كان يظهر على الصحف في الآونة الأخيرة. كان هدف هذه المؤسسة هو تجارة الحبوب. استقر واحد من مواطنيهم هناك مقابل مؤسستهم، من أجل القيام بنفس التجارة، كان يشتري الحبوب من القوافل التي كانت تعتزم نقلها إلى سوق آسفي.



Saffi. Établissement Mannesmann.

مؤسسة الإخوة مانيسمان

ويمكنني القول الآن، كخاتمة، إن لفرنسا مهمة ثقيلة تضطلع بها بالمغرب، تتمثل في التعهد بإعداد بعثة للتجديد والحضارة، ستستفيد منها كل الشعوب، وبالدرجة الأولى الشعب المغربي[24].

24. هنا تكريس للفكر الاستعماري كما أسسه الماريشال ليوطي، بكونه نظاماً استعمارياً ذا أهداف نبيلة على حد تعبير جاك بيرك.